التفسير الفقهي مع تطبيق على بعض التفاسير الفقهية ([[1]](#footnote-1))

**تفسير الفقهاء:**

**كلمة إجمالية عن تطور التفسير الفقهي:**

**الإنتاج التفسيري للفقهاء**

**هذا وإنَّا إذا ذهبنا لنبحث عن مؤلفات في التفسير الفقهي، فإنَّا لا نكاد نعثر على شيء من ذلك قبل عصر التدوين. اللَّهم إلا متفرقات تؤثر عن فقهاء الصحابة والتابعين، يرويها عنهم أصحاب الكتب المختلفة، أما بعد عصر التدوين فقد ألَّف كثير من العلماء على اختلاف مذاهبهم فى التفسير الفقهي ...**

**\* فمن الحنفية:**

**ألَّف أبو بكر الرازى المعروف بالجصَّاص والمتوفى سنة 370 هـ (سبعين وثلاثمائة من الهجرة) : "أحكام القرآن"، وهو مطبوع فى ثلاث مجلدات كبار، ومتداول بين أهل العلم.**

**\* ومن المالكية:**

**ألَّف أبو بكر بن العربي المتوفى سنة 543 هـ (ثلاث وأربعين وخمسمائة من الهجري) : كتابه "أحكام القرآن"، وهو مطبوع في مجلدين كبيرين، ومتداول بين أهل العلم.**

**وألَّف أبو عبد الله القرطبي المتوفى سنة 671 هـ (إحدى وسبعين وستمائة من الهجرة) : كتابه "الجامع لأحكام القرآن" وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، وقد قامت بطبعه دار الكتب فتم منه إلى الآن أربعة عشر جزءاً ينتهى الجزء الرابع عشر آخر سورة "فاطر" وما بقى منه على أُهبة الطبع.**

**\* ومن الزيدية:**

**ألَّف حسين بن أحمد النجرى، من أهل القرن الثامن الهجري: كتابه "شرح الخمسمائة آية" ولم يصل إلى أيدينا هذا التفسير.**

**وألَّف شمس الدين بن يوسف بن أحمد من علماء القرن التاسع الهجري: "الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة" ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية، مخطوطة فى ثلاث مجلدات، ويوجد بالمكتبة الأزهرية الجزء الثاني منه فى مجلد واحد مخطوط.**

**وألَّف محمد بن الحسين بن القاسم من علماء القرن الحادي عشر الهجري: كتابه "منتهى المرام، شرح آيات الأحكام" ولم نقف على هذا التفسير.**

**\* ومن الإمامية الاثنا عشرية:**

**ألَّف مقداد السيوري، من أهل القرن الثامن الهجري: كتابه "كنز الفرقان في فقه القرآن" ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، مطبوعة في مجلد صغير على هامش تفسير الحسن العسكري.**

**وهناك كتب أُخرى في تفسير آيات الأحكام ذكرها صاحب كشف الظنون، لا نطيل بذكرها، كما لا نطيل بالكلام عن كل ما وصل إلينا من الكتب، ويكفى أن نعرض لأهمها وهو ما يأتي:**

**1- أحكام القرآن - للجصَّاص (الحنفي)**

**\* ترجمة المؤلف:**

**هو أبو بكر، أحمد بن علىّ الرازي، المشهور بالجصَّاص. وُلِد رحمه الله تعالى ببغداد سنة 305 هـ (خمس وثلاثمائة من الهجرة).**

**كان إمام الحنفية في وقته، وإليه انتهت رياسة الأصحاب. أخذ عن أبى سهل الزجَّاج، وعن أبى الحسن الكرخي، وعن غيرهما من فقهاء عصره. واستقر التدريس له ببغداد، وانتهت الرحلة إليه، وكان على طريق الكرخى فى الزهد، وبه انتفع، وعليه تخرَّج، وبلغ من زهده أنه خُوطِبَ في أن يلى القضاء فامتنع، وأُعيد عليه الخطاب فلم يقبل. أما مصنفاته فكثيرة. أهمها كتاب "أحكام القرآن" وهو ما نحن بصدده الآن، وشرح مختصر الكرخى، وشرح مختصر الطحاوي، وشرح الجامع الكبير للإمام محمد ابن الحسن الشيباني، وكتاب أُصول الفقه، وآخر في أدب القضاء، وعلى الجملة فقد كان الجصَّاص من خيرة العلماء الأعلام، وإليه يرجع كثير من الفضل فى تدعيم مذهب الحنفية على البراهين والأدلة.** هذا وقد ذكره المنصور بالله في طبقات المعتزلة، وسيأتيك في تفسيره ما يؤيد هذا القول. أما وفاته فكانت سنة 370 هـ (سبعين وثلاثمائة من الهجري) ، فرحمه الله ورضى عنه.

\* التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

* يُعَد هذا التفسير من أهم كتب التفسير الفقهي خصوصاً عند الحنفية، لأنه يقوم على تركيز مذهبهم والترويج له، والدفاع عنه.
* وهو يعرض لسور القرآن كلها ولكنه لا يتكلم إلا عن الآيات التي لها تعلق بالأحكام فقط.
* استطراده لمسائل فقهية بعيدة عن فقه القرآن :فمثلاً نجده عندما عرض لقوله تعالى فى الآية [25] من سورة البقرة: {وَبَشِّرِ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار} يستطرد لمذهب الحنفية في أنّ من قال لعبيده: مَن بشرني بولادة فلانة فهو حر، فبشَّره جماعة واحداً بعد واحد أن الأول يُعتق دون غيره.
* تعصبه لمذهب الحنفية: ثم إن المؤلف -رحمه الله وعفا عنه- متعصب لمذهب الحنفية إلى حد كبير، مما جعله في هذا الكتاب يتعسف في تأويل بعض الآيات حتى يجعلها في جانبه، أو يجعلها غير صالحة للاستشهاد بها من جانب مخالفيه، والذى يقرأ الكتاب يلمس روح التعصب فيه في كثير من المواقف. فمثلاً عندما تعرَّض لقوله تعالى في الآية [187] من سورة البقرة: {ثُمَّ أَتِمُّواْ الصيام إِلَى الليل} .. نجده يحاول بتعسف ظاهر أن يجعل الآية دالة على أن من دخل في صوم التطوع لزم إتمامه.
* حملة الجصَّاص على مخالفيه: ثم إن الجصَّاص مع تعصبه لمذهبه وتعسفه في التأويل، لم يكن يتأدب مع الإمام الشافعي رضى الله عنه ولا مع غيره من الأئمة، وكثيراً ما نراه يرمى الشافعي وغيره من مخالفي الحنفية بعبارات شديدة، لا تليق من مثل الجصَّاص في مثل الشافعي وغيره من الأئمة رحمهم الله. فمثلاً : قوله حين لم يرقه أحد أجوبة الشافعي على سؤال مناظره: "ولو كُلِّم بذلك المبتدئون من أحداث أصحابنا لما خفى عليهم عوار هذا الحجاج، وضعف السائل والمسئول فيه".
* تأثر الجصَّاص بمذهب المعتزلة: كذلك نجد الجصَّاص يميل إلى عقيدة المعتزلة، نجده يذكر حقيقة السحر ويقول إنه: "متى أُطلق فهو اسم لكل أمر هو باطل لا حقيقة له ولا ثبات"، كما ينكر حديث البخاري في سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقر أنه من وضع الملاحدة.

ومثلاً : في نفي الرؤية للرب سبحانه وتعالى يوم القيامة ذكر عند قوله تعالى:{لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار} ... الآية، نجده يقول: "معناه لا تراه الأبصار. وهذا تمدح بنفي رؤية الأبصار كقوله تعالى - فى الآية [255] من سورة البقرة: {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ} - وما تمدّح الله بنفيه عن نفسه فإن إثبات ضده ذم ونقص، فغير جائز إثبات نقيضه بحال.. فلما تمدَّح بنفي رؤية البصر عنه لم يجز إثبات ضده ونقيضه بحال، إذ كان فيه إثبات صفة نقص، ولا يجوز أن يكون مخصوصاً بقوله تعالى فى الآيتين [22، 23] من سورة القيامة: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ \* إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} ؛ لأن النظر محتمل لمعان: منها انتظار الثواب، كما روى عن جماعة من السَلَف..."هذا.. والكتاب مطبوع فى ثلاثة مجلدات كبار، ومتداول بين أهل العلم.

\* \* \*

2- أحكام القرآن - لكيا الهراسى (الشافعي)

\* ترجمة المؤلف: مؤلف هذا التفسير هو عماد الدين، أبو الحسن علىّ بن محمد بن علىّ الطبري، المعروف بالكيا الهراسى، الفقيه الشافعي، المولود سنة 450 هـ (خمسين وأربعمائة من الهجرة) .توفى سنة 504 هـ (أربع. وكان رحمه الله فصيح العبارة، حلو الكلام، محدِّثاً، يستعمل الأحاديث في مناظراته ومجالسه، فرضى الله عنه وأرضاه.

\* التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه - أهمية هذا التفسير، ومبلغ تعصب صاحبه لمذهب الشافعي: يعتبر هذا التفسير من أهم المؤلفات في التفسير الفقهي عند الشافعية، وذلك لأن مؤلفه شافعي لا يقل في تعصبه لمذهبه عن الجصَّاص بالنسبة لمذهب الحنفية، مما جعله يُفسِّر آيات الأحكام على وفق قواعد مذهبه الشافعي، ويحاول أن يجعلها غير صالحة لأن تكون في جانب مخالفيه.

**وليس أدل على روح التعصب عند المؤلف من مقدمة تفسيره التي يقرر فيها**: "إن مذهب الشافعي رضى الله عنه أسَدُّ المذاهب وأقومها، وأرشدها وأحكمها، وإن نظر الشافعي في أكثر آرائه ومعظم أبحاثه يترقى عن حد الظن والتخمين، إلى درجة الحق واليقين، والسبب في ذلك أنه - يعنى الشافعي - بنى مذهبه على كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأنه أتيح له درك غوامض معانيه، والغوص على تيار بحره لاستخراج ما فيه، وأن الله تعالى فتح له من أبوابه، ويسَّر عليه من أسبابه، ورفع له من حجابه ما لم يسهل لمن سواه، ولم يتأت لمن عَدَاه".

* تأدبه مع الأئمة وحملته على الجصَّاص: غير أن الهراسى- والحق يقال - كان عَفّ اللسان والقلم مع أئمة المذاهب الأخرى، ومع كل مَن يتعرض للرد عليه من المخالفين، فلم يخض فيهم كما خاض الجصَّاص في الشافعي وغيره، وكل ما لاحظناه عليه من ذلك هو أنه وقف من الجصَّاص موقفاً كان فيه شديد المراس، قوى الجدال، قاسى العبارة، إذ أنه عرض لأهم مواضع الخلاف التى ذكرها الجصَّاص في تفسيره وعاب فيها مذهب الشافعي، ففنَّد كل شُبهة أوردها، ودفع كل ما وجهه إلى مذهب الشافعي، بحجج قوية يسلم له الكثير منها، كما أنه اقتص للشافعي من الجصَّاص، فرماه بالعبارات الساخرة، والألفاظ المقذعة "والجزاء من جنس العمل". مثل قوله: "ولم يعلم هذا الجاهل معنى كلام الشافعي رضى الله عنه فاعترض علي بما قاله، وعجب الناس من ذلك، فقال: فى هذه المناظرة أعجوبة لمن تأمل. فكان كما قال القائل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم"

**كما يقول في موضع آخر:** "وكيف يتصدى للتصنيف في الدين من هذا مبلغ علمه، ومقدار فهمه، فيرسل الكلام من غير أن يتحقق ما يقول.. ثم يعترض للطعن فيمن لو عُمِّرَ عمر نوح ما اهتدى إلى مبادئ نظره في الحقائق، فنسأل الله تعالى التوفيق، ونعوذ به من عمى البصيرة واتباع الهوى".

- الجامع لأحكام القرآن - لأبى عبد الله القرطبي (المالكي)

\* ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التفسير: هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر ابن فرْح - بإسكان الراء والحاء المهملة - الأنصارى، الخزرجي، الأندلسي، القرطبي المفسِّر.

كان - رحمه الله - من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الزاهدين فى الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أُمور الآخرة، وكانت أوقاته كلها معمورة بالتوجه إلى الله وعبادته تارة، وبالتصنيف تارة أخرى، حتى أخرج للناس كتباً انتفعوا بها. ومن مصنفاته: كتابه فى التفسير المسمى بـ "الجامع لأحكام القرآن"، وهو ما نحن بصدده، وشرح أسماء الله الحُسنى، وكتاب التذكار في أفضل الأذكار، وكتاب التذكرة بأمور الآخرة، وكتاب شرح التقصي، وكتاب قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذلك السؤال بالكتب والشفاعة. قال ابن فرحون: لم أقف على تأليف أحسن منه فى بابه وله كتب غير ذلك كثيرة ومفيدة.

سمع من الشيخ أبى العباس بن عمر القرطبي، مؤلف "المفهم فى شرح صحيح مسلم" بعضَ هذا الشرح، وحدَّث عن أبى علىّ الحسن بن محمد البكري، وغيرهما. وكان مستقراً بمنية ابن خصيب، وتُوفى ودُفن بها فى شوَّال سنة 671 هـ (إحدى وسبعين وستمائة من الهجرة) ، فرحمه الله رحمة واسعة.

\* التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

**وصف العلامة ابن فرحون هذا التفسير فقال:** "هو من أجَلِّ التفاسير وأعظمها

نفعاً، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ"، وذكر المؤلف رحمه الله فى مقدمة هذا التفسير السبب الذى حمله على تأليفه، والطريق الذى رسمه لنفسه ليسير عليه فيه، وشروطه التى اشترطها على نفسه فى كتابه فقال: "وبعد.. فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع الذى استقل بالسُّنَّة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمرى، وأستفرغ فيه منيتى، بأن أكتب فيه تعليقاً وجيزاً يتضمن نكتاً من التفسير، واللُّغات، والإِعراب، والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعاً بين معانيها، ومبيناً ما أشكل منها بأقاويل السَلَف ومَن تبعهم من الخَلَف.. وشرطي فى هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يُضاف الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، وكثيراً ما يجئ الحديث فى كتاب الفقه والتفسير مبهماً، لا يعرف من أخرجه إلا مَن اطلع على كتب الحديث، فيبقى مَن لا خبرة له بذلك حائراً لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم. فلا يُقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى مَن خرَّجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام، ونحن نشير إلى جُمَل من ذلك فى هذا الكتاب، والله الموفق للصواب. وأضرب عن كثير من قصص المفسِّرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه، وما لا غنى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام، بمسائل تُفسِّر عن معناها، وتُرشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكماً أو حكمين فما زاد مسائل أُبيِّن فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول، والتفسير، والغريب، والحكم. فإن لم تتضمن حكماً ذكرتُ ما فيها من التفسير والتأويل ... وهكذا إلى آخر الكتاب، وسميته بـ "الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السُّنَّة وأحكام الفرقان ... ".

والذى يقرأ في هذا التفسير يجد أن القرطبي - رحمه الله - قد وفَّى بما شرط على نفسه فى هذا التفسير، فهو يعرض لذكر أسباب النزول، والقراءات، والإعراب، ويبين الغريب من ألفاظ القرآن، ويحتكم كثيراً إلى اللُّغة، ويُكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، ويرد على المعتزلة، والقدرية، والروافض، والفلاسفة، وغلاة المتصوفة، ولم يسقط القصص بالمرة، كما تفيده عبارة ابن فرحون، بل أضرب عن كثير منها، كما ذكر في مقدمة تفسيره، ولهذا نلاحظ عليه أنه يروى أحياناً ما جاء من غرائب القصص الإسرائيلي.

هذا.. وإن المؤلف - رحمه الله - ينقل عن السَلَف كثيراً مما أُثِر عنهم فى التفسير والأحكام، مع نسبة كل قول إلى قائله وفاءً بشرطه، كما ينقل عمن تقدمه فى التفسير، خصوصاً مَن أَلَّف منهم فى كتب الأحكام، مع تعقيبه على ما ينقل منها. وممن ينقل عنهم كثيراً: ابن جرير الطبرى، وابن عطية، وابن العربى، والكيا الهراسى، وأبو بكر الجصَّاص.

وأما من ناحية الأحكام، فإنَّا نلاحظ عليه أنه يفيض فى ذكر مسائل الخلاف ما تعلق منها بالآيات عن قُرْب، وما تعلق بها عن بُعْد، مع بيان أدلة كل قول.

\* إنصاف القرطبي وعدم تعصبه: وخير ما في الرجل أنه لا يتعصب لمذهبه المالكي، بل يمشى مع الدليل حتى يصل إلى ما يرى أنه الصواب أياً كان قائله.

فمثلاً عندما تعرَّض لقوله تعالى فى الآية [43] من سورة البقرة: {وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة واركعوا مَعَ الراكعين} .. نجده عند المسألة السادسة عشرة من مسائل هذه الآية يعرض لإمامة الصغير، ويذكر أقوال مَن يجيزها ومَن يمنعها، ويذكر أن من المانعين لها جملة: مالكاً، والثوري، وأصحاب الرأي، ولكنَّا نجده يخالف إمامه لما ظهر له من الدليل على جوازها، وذلك حين يقول: "قلت: إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئاً، ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن سلمة قال: كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الناس فنسألهم ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله.. أوحى إليه كذا.. أوحى إليه كذا، فكنت أحفظ هذا الكلام، فكأنما يقر في صدري، وكانت العرب تلوم بإسلامها فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبادر أبى قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم واللهِ من عند نبى الله حقاً.. قال: "صلوا صلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذِّن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآناً"، فنظروا فلم يكن أحد أكثر منى قرآناً، لما كنت أتلقى من الركبان. فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين، وكانت على بُردة إذا سجدتُ تقلَّصت عنى، فقالت امرأة من الحى: ألا تغطون عنا إست قارئكم؟ فاشتروا فقطعوا لى قميصاً، فما فرحتُ بشىء فرحى بذلك القميص".

كذلك نجد القرطبي - رحمه الله - كثيراً ما يدفعه الإنصاف إلى أن يقف موقف الدفاع عمن يهاجمهم ابن العربي من المخالفين، مع توجيه اللَّوم إليه أحياناً، على ما يصدر منه من عبارات قاسية فى حق علماء المسلمين، الذاهبين إلى ما لم يذهب إليه.

::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::

1. () من كتاب التفسير والمفسرون للذهبي مختصرا. [↑](#footnote-ref-1)